ثورة التفعيلة

كان شعراء البند، كما أسلفنا، روّاد شعر التفعيلة الأوائل إلا أنهم انتهوا - كما انتهت ثورتهم - دون أثر. لنا مع التسليم بفضل الرواد، أن نعتبر ما قام به الشعراء المجددون في الأربعينات ثورة حقيقية من وجهين. الأول، أن التجديد الذي جاء مع شعر التفعيلة تجاوز - بمراحل - تجديد الثورة الأولى، الموشحات، وتجديد الثورة الثانية، البند. فتحت الثورة الثالثة الباب على مصراعيه لأشكال وأنواع من التجديد لا تكاد تقع تحت حصر. ولامس هذا التجديد حدود إلغاء الشعر نهائياً مع قصيدة النثر [١]. ويتعلق الوجه الثاني بالمضمون. مع شعر التفعيلة جاء دور جديد للشاعر العربي لم يعرفه عبر تاريخه الطويل، وهو الشاعر/ المنقذ.

سرعان ما ارتدت ثورة التفعيلة - بعد طفولة رومانسية قصيرة - ثياباً واقعية/ سياسية/ اجتماعية/ فكرية صارمة في توجّهاتها ومنطلقاتها. تواكبت هذه الثورة مع الانتشار العالمي للأفكار الاشتراكية ولمبادئ التحرر والاستقلال، وسرعان ما

(١) يسخر إبراهيم العريض سخرية مبطنة من قصيدة النثر حين يلاحظ أن قُس ابن ساعدة الذي قال: «ليل داج. وسماء ذات أبراج. وأرض ذات فجاج. وبحار ذات أمواج» كان سيعتبر نفسه من المجددين لو عاش في أيامنا هذه. انظر إبراهيم العريض، مرجع سابق، ص ٤٩٢ .

وجدنا أنفسنا، في العالم العربي، أمام الشاعر/ المنقذ. نظر الشاعر الحر الجديد إلى نفسه نظرة من اختاره القدر لتحرير الأمة من قيودها المختلفة، قيد الاستعمار، وقيد الاستغلال، وقيد القيم الاجتماعية المتخلفة، وقيد الأشكال الشعرية البالية. أصبح الالتزام رديفاً للشاعرية، ولم يكن للشاعر غير الملتزم من دور في هذه الحقبة. يعبر أحد الباحثين عن روح هذه الفترة بدقة حين يقول:

> ***هذا الالتزام قد منح الأدب أبعاداً إنسانية جديدة... ولقّن أصحاب النزعات الفردية، وسكان الأبراج العاجية. والمصابين بلوثة التعالي على الشعب، وعدم المبالاة بما يشغل حياته ووجدانه، دروساً جيدة في مشاركة الناس همومهم، والعيش معهم، والتزام قضاياهم في شتى مجالات الحياة، والإسهام في تطويرهم وتوجيههم نحو التقدم والرقي*** (١).

عكست أسماء المجموعات الشعرية الجديدة روح الحقبة، من «أباريق مهشمة»، إلى «سفر الفقر والثورة»، إلى «مدينة بلا قلب»، إلى «الناس في بلادي»، إلى «حفار القبور». وسرعان ما تعلم عدد من شعراء الرومانسية الدرس الجديد، وتحولوا، بدورهم، إلى شعراء/ ملتزمين/ منقذين. نزار قباني الذي ولد في مخدع المرأة، وقال أجمل شعره في هذا المخدع، قرر أن يهجر «شعر الحب

(١) انظر أحمد أبو حاقه، **الالتزام في الشعر العربي**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩)، ص ٧٠٦-٧٠٧ .

والحنين» ويكتب «بالسكين». حقيقة الأمر أن الشعراء/ المنقذين لم يرحبوا بهذا القادم البرجوازي الجديد، خاصة عندما تبين أنه أقدر منهم على سرقة الأضواء (والجماهير!).

رغم التمرد الرومانسي وثورة التفعيلة ظل عدد من شعراء القرن العشرين البارزين يعيشون، خارج الموجة السائدة، حياة الشعراء/ الفرسان. نذكر من هؤلاء، على سبيل المثال لا الحصر، الرصافي والزهاوي والبردوني والزبيري والنجفي، ونتوقف عند أبرزهم، الجواهري. عاش الجواهري حياة طويلة مليئة بالفروسية المتقلبة المتذبذبة. بدأ الشاعر/ الفارس حياته بخدمة البلاط الهاشمي، ثم تمرد عليه وهجاه، وهادن كل حكومة شهدها العراق وعاداها، ودخل البرلمان، ذات يوم، برعاية حكومية، وعاد شاعراً موظفاً في البلاط القاسمي بعد الثورة، ثم انقلب عليه. جرب المنفى فالوطن فالمنفى في دورة لا تكاد تنتهي. لم تمنعه ميوله الثورية الدموية المتأصلة من مديح ملك الأردن وملك المغرب (وتسلم عطايا أمير المؤمنين!). أبدى في مقابلة تلفزيونية في أواخر حياته، ليتها لم تذع!، ما يشبه الندم لعدم تمكنه من الوصول إلى مقعد الوزارة!

ظل شعر التفعيلة الملتزم، بتنويعاته العديدة، سيد الساحة الشعرية في الخمسينات والستينات، حتى جاءت نكبة حزيران الأسود سنة ١٩٦٧م. مع استيعاب أبعاد «النكسة» وأغوارها في السبعينات عرف الشعر العربي ما يمكن أن نسميه، مع الاعتذار

لأدونيس مرة أخرى، «صدمة الهزيمة». ومع هذه الصدمة حدثت أشياء كثيرة غريبة للشعراء العرب. صمت بعضهم نهائياً، أو انتحر (ولصديقنا الدكتور محمد جابر الأنصاري كتاب كامل عن انتحار المثقفين العرب). واستمر بعضهم يرتدي عباءة المنقذ غير آبه بسقوط سور برلين وتطاير ما كتب في ظله من قصائد الكفاح مع الرياح. وركب نزار قباني موجة جلد الذات، وسرعان ما شجعه إقبال الجمهور على التمادي، حتى أصبحت النزاريات السياسية «ابن روميات» جديدة تنافس القديمة في الفحش والبذاءة. ارتد بعض الشعراء إلى أنفسهم ووجدنا أنفسنا أمام طلاسم وتهويمات شعرية، يمكن أن تقرأ على ثلاثين وجهاً كالإبداعات المملوكية، وإن كانت تجيء هذه المرة مطوّبة بماء الحداثة. انتهى القرن العشرون والشاعر العربي يبحث عن دور، وأطلّ القرن الجديد ولا يزال البحث مستمراً.

لم يعبر شاعر عربي عن إحباطات الشاعر العربي في القرن العشرين كما عبر عنها أمل دنقل. بصدق وبساطة، وباستلهام حي للتراث، وبموهبة كبيرة. تكلم أمل دنقل عن هزائم الشاعر العربي المتلاحقة، هزائم الشاعر/ الفارس، والشاعر/ الفنان الشامل، والشاعر/ المنقذ:

قيل ليَ اخرسْ!...
فخرست.. وعميت.. وائتممتُ بالخصيانْ
ظللت في عبيد عبسٍ أحرس القطعانْ
أجزّ صوفها..

أردّ نوقها..
أنام في حَظائرِ النسيانْ.
....
وها أنا في ساعةِ الطعِانْ
ساعة أن تخاذل الكماة والرماة والفرسانْ
دُعيت للميدانْ!
أنا الذي ما ذقت لحَم الضانْ
أن الذي لاَ حول لي أو شانْ
أنا الذي أقصيت عن مجالس الفُتيانْ
أدعى إلى الموت... ولم أدع إلى المجالسة! (١)

بقي الشعر العربي لصيقاً بالروح العربية عبر أحداث القرن المنصرم ومآسيه. إلا أن تقلّبات الشاعر العديدة جعلت من الصعب على الجماهير العربية متابعة شعرائها. ما إن تعودت الأذن العربية على لغة «مضناك جفاه مرقده» حتى فاجأتها لغة أخرى هامسة خافتة تتحدث عن هيكل الحب والزورق التائه وعروس الجن التي تنام في كهفها المسحور. وما إن ألفت الأذن العربية هذه اللغة الرقيقة الناعمة حتى انفجرت ثورة التفعيلة،

(١) انظر - قصيدة - «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة»، في أمل دنقل الأعمال الشعرية الكاملة (بيروت: دار العودة، الطبعة الثانية ١٩٨٥م) ص ١٣٤ . وانظر السيرة الجميلة للشاعر بقلم زوجته، عبلة الرويني، الجنوبي: أمل دنقل: (القاهرة، مكتبة مدبولي، د. ت).

obeikandl.com

وانتقل الحدث من «الجندول» إلى معاناة «المومس العمياء» في مجتمع من الإقطاعيين، وإلى الذعر النووي، وإلى جماجم الرأسماليين التي ستتحوّل، في القريب العاجل، إلى منافض للسجائر بمعرفة عبدالوهاب البياتي.

إلا أنه بالرغم من هذه التقلبات، وتأثيرها العنيف على الجمهور، أرى أن الحديث عن انتهاء زمن الشعر العربي وبدء زمن الرواية العربية حديث بعيد عن الدقة. لا تزال النفس العربية مشدودة، بحبل تاريخي سري غير مرئي، إلى وليدها (البكر)، وليدها السحري. يرى البعض كساد الشعر، خلو الأمسيات الشعرية من الرواد، وبقاء الدواوين مغطاة بالغبار في المكتبات، فيصابون باليأس، وينسون حقيقتين أساسيتين عن الشعر والشعراء. الحقيقة الأولى أن الشعراء الكبار، بطبيعة الأشياء، قلة قليلة في كل زمان ومكان. والحقيقة الثانية أن شعراء العرب الكبار (القلائل) في القرن المنصرم تمكنوا من اجتذاب جمهور كبير يفوق، بمراحل، جمهور الرواية. كان شوقي شاعراً جماهيرياً، وكان شعره ينتقل، بسرعة البرق، من المحيط إلى الخليج، «بكل محلّةٍ يرويه خلق». وكان الجواهري شاعراً شعبياً يستطيع حشد الجموع حيثما ذهب. ويلقى محمود درويش، اليوم، حيث يلقي شعره آلاف المعجبين. ولا ينبغي أن ننسى شاعرنا الجماهيري الأكبر نزار قباني الذي تجاوز عدد دواوينه التي بيعت (على نحو أو آخر) الرقم السحري: مليون نسخة. لم تفقد النفس العربية

شغفها بالشعر وإن كانت، بين الحين والحين، تعبر عن ضيقها بشعراء يقولون ما لا تفهم، شاهرة في أوجههم السلاح القاتل: التجاهل التام!

قبل ثلث قرن تساءلت: «هل للشعر مكان في القرن العشرين؟» [١]، ورددت على السؤال بالإيجاب. وأجد نفسي حين أتساءل السؤال نفسه عن مكان الشعر في القرن الجديد مدفوعاً إلى الإجابة ذاتها. لا أعتقد أن القرن الذي شهد مولد الإنترنت، والعولمة، وفك شفرة الجينات سيشهد انقراض الشاعر العربي. لقد أثبت الشعراء العرب، عبر تاريخ حافل طويل، قدرة خارقة على البقاء والتناسل والتناسخ والاستنساخ، مرة بعد مرة بعد مرة. هذا عن الشعر نفسه، فماذا عن الشاعر؟ أي دور ينتظره في المجتمع الجديد في الحقبة الجديدة مع أجيال جديدة من القراء؟ هنا أراني مضطراً، بجبن لا أحاول إخفاءه، إلى الاختفاء في حكمة الشعراء/ الملوك:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غدٍ عمِ

(١) انظر: غازي عبدالرحمن القصيبي، «**هل للشعر مكان في القرن العشرين**» في: **عن هذا وذاك** (جدة: تهامة، الطبعة الثانية ١٩٨١) ص ٨١ -٩٢ .

obeikandi.com